

على كل من يرغب في التعرف عن قرب على حقيقة أهل المدن في مصر، فهم من يحافظون على التقاليد القديمة، ويسيرون على نهجها بقدر محافظة المجتمع عليها. إلا أن تحولها التام إلى النمط الأوروبي سيستغرق بعض الوقت. وباستثناء عاداتهم الشرقية من الظلم والاختلاس والنفاق والفساد، فذلك الجمع الغفير من الطرابيش في مقاعد الأوبرا (حيث أن المحمدي لا يخلع غطاء رأسه أبداً)، هي المظاهر الوحيدة في الأوبرا القاهرية التي فأفرادها يقدرون تماماً فوائد التعامل مع الإفرنجيين؛ إذ عادة ما يخالطونهم ويغشونهم، تلك القاهرة التي وصفها إدوارد ويليام لين» في كتابه «المصريون المحدثون؛ فإننا نقول إن أولئك الذين قرءوا كتاب لين؛ وأن أهل القاهرة ظلت أحوالهم وسلوكياتهم على حالها، سوف نجد مظاهر هذه الحياة البشرية الجامدة في أحد شوارع القاهرة الرئيسية، عندما نترك الحي الأوروبي خلفنا، وهي تشكل في الوقت نفسه حدود الشارع المستمرة على كلا الجانبين، أو سبيل عام، مجموعة للسكر النبات، ولا شك في أن لهذا النظام مزاياه؛ ومن ناحية أخرى، يجب أن نعترف بأنه ليس هناك ما هو أشق عليك من أن تشتري رداءك من ستة محلات في أماكن مختلفة. فتشتري القماش من مكان، والأزرار من مكان آخر، وحيث إن على كل زبون أن يساوم البائع – تلك المساومة التي قد تطول إلى حد التدخين أو حتى شرب القهوة – فإنك تستطيع أن تعد نفسك في عداد الفاتحين إذا استطعت الحصول على رداك في يوم واحد في أحد هذه الدواليب الصغيرة التي تقوم مقام المحال، فقد يتصادف أنه ذهب ليصلي، أو ربما شعر بعدم الرغبة في ممارسة نشاطه التجاري في ذلك اليوم. ونظرا لأنه لا يقيم بالقرب من مكانه – وحتى لو كان كذلك، حيث نسأل وما من مجيب عن تساؤلنا ! مع ذلك، فقد يخبرنا جاره التاجر بلطف أن الرجل الطيب الذي نبحت عنه قد ذهب إلى المسجد، فبالتالي نطلب منه ما قد جئنا لنطلبه من جاره. وقد يتجاوز المكان كله يرتفع عن الأرض بمقدار قدم أو قدمين. ومن الغريب أن صاحبنا قد استطاع في هذا الحيز الضيق أن يضع كل السلع التي يعتقد أنه يستطيع بيعها، كما استطاع أن يحتفظ لنفسه ولزبائنه بحيز يجلسون فيه ويدخنون السجائر أثناء المساومة على الأسعار معهم. وبالطبع، فإن بضائعه ستكون بكمية محدودة جداً، فسوف يتركك مع قdoch من القهوة، وفي غضون ذلك، الأزياء الخوالي وهي تسير بخطوات سريعة متأرجحة، إلا أن الصبية سائقي الحمير – الذين لا ترى مظهرا للشفقة في سلوكهم وهم يجرون وراءها باضطراب – يحملون هذه الحيوانات على أن تعد السير يمينا أو يسارا، يمينك يا ست»، افتح عينك يا عم . وترى النساء وقد حملن فوق رؤوسهن الصواني وعليها أصناف الطعام، جاءوا لقضاء بعض الحاجات، ولكنهم يقضونها في تأن وعلى مهل. شأنه في ذلك شأن كل شيء في الشرق. وها هو صاحبنا التاجر يعود حاملا السلعة المطلوبة التي ذهب للبحث عنها، فتقبلناها تدريجيا، وبعد مساومة أخرى غير مجدية، فترجع إلى الدكان وتدفع الثمن وتتسلم مشترياتنا، فإن المساومة قد تستمر حتى نصل إلى منزل صاحبنا التاجر، وفي الواقع، قد يتصادف – أحيانا – أن يكون مسكن فرد من الطبقة الوسطى في القاهرة بمثابة قصر من القصور، ونراه يفضل الإقامة في شارع ٢٩ – ذلك الطريق الذي لا ظلال فيه – أو حيث تقع المنازل الحديثة التي تشبه الجنان والمشيدة بقوالب القرميد، أولئك البكوات الذين كانوا يأمرهم أتباعهم وجنودهم بالاحتشاد حينما يقتضي الأمر توجيه ضربة قاضية للجلوس على عرش مصر المتداعي، والذي كان دائما ما يقع في أيدي قادة أقوى الكتائب المملوكية. ولكنها تختلف فقط من حيث الحجم وكثرة الزخارف أو قلتها. فليس علينا إلا أن نختار غرفة أو غرفتين من غرفه الفاخرة، تشاهد الواجهة الضخمة لجامع السلطان المؤيد المملوكي، تقوم مئذنتنا الجامع على بوابة قديمة وبديعة تسمى باب زويلة، فهو يطير – دون أن يراه أحد من سطح الكعبة في مكة إلى باب زويلة، والمؤمنون به يسبحون بمسابحهم وهم يمرون بجانب هذا المرقد، وعلى أية حال، فمن الأفضل لديهم أن ينتزع الضرس ويُثبت في الباب هذا الباب يحفل بالكثير من النذور الكريهة من أمثال هذه النوعية الغربية، ولو كتب لهذه النذور جميعها النجاج، ضيق ثم نتحرف فجأة إلى اليسار، إلا أن به مسجدا صغيرا – يحوي ضريح أحد الأولياء الموقرين – يقع في أحد أركانها. التي لا يغير من لونها إلا النوافذ المؤلفة من شبكة مقاربية من القضبان المتراص بعضها بجوار البعض. وعلى جانبي الطريق الضيق تتفرع أزقة أخرى أضيق منه، أحيانا ما ولكنها كثيرا ما تمتد إلى مسافات بعيدة في قلب مدينة واجهة محل موصدة وفي أفنية هذه المنازل نرى الكثير من المشربيات، وتوجد في منازل الطبقة العليا، يحتفظ الناس بالمشربيات الجميلة لوضعها في نوافذ المنزل الداخلية التي تطل على الفناء أو الحديقة، المشربيات البديعة التي تضيء على المنازل مظهرا مبهجا وفريدا. واسم المشربية مشتق من أصل لغوي عربي هو الفعل يشرب الذي يظهر في كلمة شربات»، وقد استخدم هذا الاسم للدلالة على هذه النوافذ الخشبية المتشابهة؛ وعادة ما نجد نتوءا صغيراً نصف دائري يبرز من وسط المشربية التوضع فيه القلة أو الإبريق. والكرات الدقيقة التي تتكون منها شبكة المشربية، فمتداخل بعضها في بعض بحيث لا يستطيع الجيران أن يروا من خلالها أي شيء داخل المنزل ومع ذلك فهناك فراغات كافية تسمح بتخلل الهواء إلى جوف المنزل عبر المشربية. وفي الواقع، فهناك نوافذ صغيرة مناسبة

في فيفتحن النوافذ ليرى هؤلاء المارة أنهم جميلات فعندما تتقابل المشربيات عبر الشارع - كما يحدث مراراً في الطرقات الهادئة - قد نتساءل عما إذا كان الإخفاء محكماً وفقاً للغرض من إنشاء تلك المشربيات . فالمرء منا يستطيع أن يتصور المغازلات السهلة التي قد تجرى بين المشربيتين المتقاربتين، ومع ذلك فهذا ليس السبب في اختفائها السريع من الشوارع والبيوت بل السبب الرئيسي هو أنها قد أصبحت تشكل عاملاً مدمراً، وهو ما جعل أصحاب المنازل يميلون إلى التخلص من تكلفة تركيبها. ويضاف إلى ما سبق، أن مناخ القاهرة في الشتاء أصبح لا يميل إلى الدفء كما كان معتاداً نقف أمام مدخل دار مقوس فننزل من على الحمار وتربطه في حلقة قريبة. والباب نفسه جدير بالدراسة؛ فالجزء العلوي منه تحيطه النقوش العربية (الأرابيسك) التي تشكل مربعا مزر كشاً في أعلاه. وكذلك لتذكر صاحب المنزل بالموت كلما عاد إلى بيته. وكقاعدة، ولا تدخل الملائكة بيتاً به ناقوس. يكون الباب بلا ونواسي أنفسنا بتلك الآية القرآنية التي تناقض طبيعتنا، والتي تقول إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ). وعندما السيوفي. تسقط أسنان متحركة معينة من رزة الباب إلى داخل الفتحات في اللسان المنزلق، فتحول دون سحب اللسان للخلف، يرفع الأسنان المتحركة ويسمح للسان القفل بالانزلاق للخلف. ولا شيء أكثر رداءة بربري كفيلاً بكشف وضع أسنان القفل. ولابد من أن نجد البواب في هذا الممر، ندلف إلى فناء متسع به بئر للمياه الجوفية في أحد الأركان الظليلة وربما نجد شجرة جميز عتيقة. ويقودنا مضيفنا إلى إحدى تلك الحجرات السفلى، أنفسنا في بيتنا. فستجد هذا الجزء المنخفض مغطى بالموزايك الرخامي (الفسيفساء)، وغالباً ما يكون هناك جزء بارز مفروش بالسجاد على جانبي الجزء المنخفض من الحجرة. وفي الحائط الخلفي مشربية مؤنثة بوسائد مريحة، واجتماعها كلها يتألف شكل زهرة. وهذه النوافذ تسمح لنصف كمية الضوء فقط أن تمر من خلالها. أما الجانبان الآخران فمطليان بالجير، وليس بهما خشب ولا قرميد بل بهما بضع خزائن خشبية منخفضة ذات أبواب صغيرة تفتح بطريقة هندسية معقدة، وهي مثال جيد على أن الحاجة أم الاختراع؛ تلك الحرارة التي أدت إلى إتقان صنع هذه النماذج المعقدة، التي تعد بمثابة ثمة كوة صغيرة مقوسة، أما سقف الحجرة فيتكون من ألواح مثبتة في دعائم أفقية ضخمة، أما أو أي من الأثاث الذي يعرفه الأوروبيون. وحينما يحين وقت الطعام، وإذا كان الجو بارداً، ومع ذلك، فإن الكراسي في طريقها للانتشار في مجتمع القاهرة، وربما يجيء الوقت الذي سوف نجد فيه مضيفنا المحمدي يسألنا أن نضع أرجلنا تحت كرسيه الماهوجني»، مثل أي مضارب إنجليزي في البورصة، قد تشعر بالسعادة وفي أغلب الأحيان، هناك غرفة استقبال أخرى مرتفعة عن مستوى الأرض، وعادة ما تكون فجوة منخفضة عن مستوى أرضية الفناء، وتفرش بديوان يمكن الجلوس عليه في الأجواء الحارة. وكلمة حريم معناها: ما هو محرم على الرجال الآخرين ومخصص للسيد نفسه، وإنه لمن العسير عليك حقاً أن تحاول وأمام القاعة دهليز يستخدم للتهوية والتبريد، حيث إن الستارة التي تتدلى من مكان مفتوح في سقف هذه الحجرة تتثنى حتى تقود النسمات الشمالية الباردة، ثم تدفعها إلى داخل المنزل في الجو الحار، ولكن لا تحتوي أي منها على أثاث خاص بالنوم كما قد نتخيل. يجب التدرج على هذه العادة، وهناك قسم آخر مهم في جناح الحريم، ألا وهو الحمام، الذي لا يعد مجرد حجرة خاصة بها مغطس للاستحمام، وهو شبيه بالضبط بالحمامات التركية العامة، والبيوت الكبيرة فقط هي التي تتمتع بهذا الترف، وقليل من بيوت القاهرة يصل ارتفاعه الأعلى من دورين وكثيراً ما تكون الأدوار العليا في حالة متهدمة وخربة حيث يكون السقف منهاراً، متساقطة ومتهاكة. وفي الحقيقة، وتظهر الحوائط المنبجعة والزوايا المشروخة أن المزيد من تلك المنازل تسير على نهج سابقتها المنهارة، وإنه لأمر مزعج أن نتصور كم هو قليل ما سيصمد من معالم القاهرة وبيوتها بعد خمسين عاماً. فلم تشيد هذه المنازل لتبقى؛ يعيش سكان ذلك البيت الذي وصفناه، قرب البيت يستيقظ مبكراً جداً، وكل ما يطلبه قبل تناول غدائه الخفيف هو شيشة وقدر من القهوة، يدخر شهيته للطعام إلى الوجبة الأساسية اليومية، أما إذا كان في عمله، والعنق الطويل المصنوع من خشب شجر الكرز والسلطانية المصنوعة من الفخار الأحمر، والتي تملأ بالتبغ الجبلي المخفف أو تبغ اللانقية الشامي. وإذا لم يكن لديه عمل معين يشغله، فإنه يروح عن نفسه باستدعاء أصدقائه، باب في حي الأقباط وأحياناً حصانا، نرى أن الحمار المصري الأصيل حيوان ملائم، فخطواته سريعة، وركوبه مريح في الوقت نفسه، وليس من الصعب أن نكتب خطاباً على قربوس سرج إحدى هذه الركائب ذات السير الحسن والقربوس هو أكثر الأجزاء إثارة للفضول في السرج، فأحياناً يرتفع بمقدار تسع بوصات أو أكثر على المقعد، وتعتبر تلك الدواب شديدة الثبات في سيرها، والطريقة المعتادة لحث الحيوان على الهرولة، ولكن وجهاء القوم الآن يستخدمون العربات، وتعد كيفية توافق السائس وصبي الحمار مع القيادة السريعة السادتهم لغزاً من الألغاز، ويقال إنهم يضرون صحتهم بهذا الجهد المفرط، الذين يساهمون فيها. ولم يستطع أي إنسان كان في القاهرة عام ١٨٨٣ أن يتمالك نفسه عن الأسف على تقبل اللورد دوفرين "والسير إ. حتى وإن تقبلها لحد أدنى؛ لا يكسوها إلا ثوب القسوة تجد نساء بيته يعملن لتمضية الوقت بأفضل صورة

ممكنة. وعلى الرغم من الأفكار الشائعة عن هذا الموضوع، فإن المحمدي « قلما يتزوج بأكثر من امرأة واحدة؛ وإذا تم بالفعل القضاء على هذه التجارة، فإن القاهري سيصير أحادي الزوجة. وقد جعل الخديو " نفسه قدوة حسنة في هذه الناحية، والواقع أن هناك الكثير من المسلمين أخلاقهم مثل المسيحيين في هذا الأمر. وتعتبر سهولة الطلاق مشكلة حقيقية؛ كما أن تعدد الزوجات لا يؤدي إلى الانسجام المنزلي، بل إن صباعاً للملابس في بغداد قد تخطئ هذا الرقم المذهل إلى رقم أكثر إثارة للعجب منه؛ وتوفى في سن الخامسة والثمانين. ولو أنه تزوج في سن الخامسة عشرة لكان زواجه بمعدل مرة في كل شهر طوال فترة السبعين سنة التي قضاها في الزواج